رثاء العشاق في العصر الأموي

دكتور / حمدى محمد محمود برعى
مدرس الادب والنقد بكلية الدراسات الاسلامية
والعربية للبنين بدمياط [جامعة الازهر]

المقدمة

يعد الرثاء من أصدق العواطف الانسانية تعبيرا عن مكونات الافئدة ، فالحبيب حينما تألف روحه روح حبيبته ويتلاقيان فى تبادل المشاعر الانسانية الصادقة ، ثم يظلان على هذا التآلف وذاك الحب ، فاذا ما فقد أحدهما الآخر وأحس بأنه لا تلاقى بعد الآن ، فانه يظل يسكب أغزر الدموع وأشجى العبرات ، وتسود حياته الكآبة والوجوم والايلام ، لانها عشرة اقترنت بالحب والاخلاص غير آن دوام الحال من المحال :

المرء يجمع والزمان يفرق ويظل يرقع والخطوب تمزق

فالحياة متقلبة دائما لا تصفو على حال ، ولا تسير على وتيرة واحدة ، والانسان فى هذه الحياة لا يبقى ولا يخلد ، فلا بد من فناء الانسان وانتقاله الى دار البقاء — دار الاستقرار والجزاء — والقرآن الكريم دائما يشير الى قضية فناء الانسان وأن البقاء لله وحده يقول

جل وعلا : « كل من عليها فان • ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام »(١) • ويقول سبحانه : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين • الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون • أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »(٢) •

ويبتلى الله سبحانه وتعالى الانسان لحكمة يريدها سبحانه ، وهى الثبات والطمأنينة فترجع النفس الى خالقها ، فتراجع مواقفها وحساباتها ، وبعدها تثبت فى مواجهة تقلبات الحياة ونكباتها وأحداثها ، فيقول سبحانه : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون • ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »(٣) •

ثم يأمر الله الانسان بالتصبر على مرهقات الحياة وآلامها فيقول : « واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور »(٤) •

وطبيعة الانسان تأنس للجانب المشرق من الحياة ، حيث الراحة العيش الرغيد ، وتهرب من جانب الحياة المظلم الكئيب • فكل ما يؤلم النفس ويزعجها وخاصة حينما يصاب الانسان بفقد عزيز أو قرين فهو كريه وغير مقبول لديه • ومن هنا كان للانسان أن يعطى نفسه المجال فى التعبير عما يحدث حولها ، ويجيش بخواطرها ومشاعرها • وهذا التعبير المصور لآهات النفس وأحزانها وخطوبها قد جال فيه الشعراء •

---

(١) سورة الرحمن آية ٢٦ ، ٢٧ •
(٢) سورة البقرة آية ١٥٥ ـ ١٥٧ •
(٣) سورة العنكبوت آية ٢ ، ٣ •
(٤) سورة لقمان آية ١٧ •

حيث يملكون مواجيد ومشاعر خاصة بهم ، وذلك عبر العصور المختلفة ، بيد أنه قد يكون شعراء العصر الاموى وشواعره أصدق من غيرهم فى التعبير عن حزنهم لفقد أحبائهم ، كعروة بن حزام ، وليلى الاخيلية ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ، ومجنون ليلى ، وقيس لبنى وغيرهم ممن برحهم الهوى وأحرقتهم نار العشق والهيام •

رثاء العشاق فى العصر الاموى

قد تمثلت فى الشعر العربى فى العصر الاموى مدرستان غزليتان عريقتان :

احداهما : تتغنى بالجمال الجسدى ، وتهيم فى أوصافه وفتنته • وقد تزعم هذه المدرسة الشاعر الغزلى : عمر بن أبى ربيعة •

وثانيتهما : تتسم بالطهارة والعفة فى الوصف والتصوير •

فعمر بن أبى ربيعة يعشق الجمال لا لشىء ، وانما لذات الجمال ، انه يبحث عنه فى كل مكان وحيثما كان • يتعرض عمر لحسناوات النساء فى المجتمع الحجازى يشبب بهن ، ويبادلهن الغرام والهوى ، فيجد لديهن قبولا واستمتاعا وذلك بفضل ما اتسم به من خفة الروح وحلاوة الحديث • غير أن عمر لم يبلغ من المعاناة ما عاناه زملاؤه وأقرانه من الشعراء العذريين ، كقيس وجميل وكثير • وغيرهم من رواد المدرسة العذرية •

وسواء أكان الغزل اباحيا أو عذريا فقد رثى شعراؤه محبوباتهم ورثتهم محبوباتهم بأحر وأعذب ألفاظ ومعانى الرثاء •

وكما لم يقتصر عمر بن أبى ربيعة فى غزله على واحدة من النساء ، وهذا دأبه ، كان كذلك فى رثائه ، فهو يرثى الواحدة منهن

بشعر حار ومؤثر سواء أكانت بينه وبين المرثى فيها صلة حب وغرام أو مجرد العطف على جنس المرأة والميل الى جنس النساء والغرام بهن .

فعلى سبيل المثال حينما قتلت بنت النعمان بن بشير الانصارية على يد مصعب بن الزبير وهى زوجة المختار الثقفى(٥) يرثيها عمر ابن أبى ربيعة بقوله :

ان من أعظم الكبائر عندى
قتل حسناء غادة عطبول(٦)

قتلت باطلا على غير ذنب
ان لله درها من قتيل

كتب القتل والقتال علينا
وعلى المحصنات جر الذيول(٧)

فالشاعر يستنكر هذه الفعلة الشنعاء . وهى قتل هذه المرأة ظلما ، ثم لا ينسى أن يرسم للمرأة صورة غزلية رقيقة ، فهى حسناء ، متثنية

---

(٥) المختار الثقفى : هو المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى . أبو اسحاق . من زعماء الثائرين على بنى أمية . وأحد الشجعان الأفداذ من أهل الطائف . انتقل منها الى المدينة مع أبيه فى زمن عمر ، وتوجه أبوه الى العراق فاستشهد يوم الجسر ، وبقى المختار فى المدينة منقطعا الى بنى هاشم توفى سنة ٦٧هـ ــ ٦٨٧م . راجع الأعلام للزركلى مج ٧ ص ١٩٢ .

(٦) العطبول : المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق .

(٧) راجع : الكامل فى اللغة والأدب للمبرد جـ ٢ ص ١٨١ ــ مكتبة المعارف ــ بيروت . ثم انظر : ديوان عمر بن أبى ربيعة د/ محمود أبوناجى ص ٣٣٨ دار الشروق ــ جده ، والرثاء فى الشعر العربى د/ محمود أبوناجى ص ٣٢٣ مكتبة دار التراث .

لينا ، فتية جميلة ، ثم يستنكر هـذا الفعـل بوجه عام لا يخص امرأة بذاتها ، بل اذا كان هناك قتل فيكون للرجال دون النساء •

كتب القتـل والقتال علينا وعلى المحصنات جر الذيول

فللنساء التنعم والتمتع بمتع الحيـاة المترفة الناعمة ، فهن خلقن لذلك وليس للقتل ، كما حدث للمرأة هذه التى قتلت بدون اثم اقترفته ، أو منكر جنته وارتكبته •

وتتجلى عبقرية عمر بن أبى ربيعة العاشق فى رسـم الصـورة الرثائية لامرأة ما دون معرفة بها • وقبل ذلك رسم لها صورة غزلية •

فالصورة هنا صـورة حزن وجزع على سيدة قتلت ظلما وباطلا ، ثم ما نحس به من عاطفة انسانية عامة جعلتنا نحزن معـه على الحدث ذاته ، وبما حملته الابيات من ألفاظ بسـيطة سهلة ، ومعان واضـحة لا غموض فيهـا ولا التواء ، وخيال مشرق نرى أنها أدت غرضها التى قيلت من أجله ، وهو الحزن على قتل سـيدة بريئة دون أن يكـون بين عمر وبين هذه السيدة علاقة حب أو غرام بها •

وتوقل ليلى الاخيلية(٨) الشعر الحار فى توبة بن الحمير(٩) ،

---

(٨) ليلى الأخيليـة : هى بنت عبد الله بن الرجال بن شـداد بن كعب الأخيلية ، من بنى عامر بن صعصعة ، شاعر فصيحة ذكية جميلة ، اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير ، قال لها عبد الملك بن مروان : ما رأى منك توبة حتى عشقك ؟ قالت : ما رأى الناس منك حتى جعلوك خليفة • ووفدت على الحجاج مرات ، فكان يكرمها ويقربها ، وطبقتها فى الشعر تلى طبقة الخنساء • توفيت بسلوة وقبرت بها سنة ٨٠هـ ـ ٧٠٠م راجع : الأعلام للزركلى مج ص ٢٤٩ وأمالى القالى جـ ١ ص ٨٩ طبعة بولاق سنة ١٣٢٤هـ •

(٩) توبة بن الحمير : بن حزم بن كعب بن خفاجة ، العقيلى ، العامرى ، أبو حرب • شـاعر من عشاق العرب المشهورين ، عاش أيام الراشدين ، =

بعد أن قتله بنو عوف فى احدى الغارات • حزنت ليلى على توبة حزنا شديدا ، وهجرت معظم مقومات الحيـــاة من ملبس ومأكل وزينة ، حتى ماتت بعده بزمن طويل(١٠) ، وقالت فيه المراثى الكثيرة والتى وصفها أحد الادباء بأنها كلها جميلة ، وأن ليلى هذه ربما كانت خير من يمثل رثاء العشاق فى الجاهلية ، بل فى الاسلام ، ذلك لعدة أسباب •

أولها : كثرة هذه المراثى التى قيلت فى توبة ، وثانيها ، لصـــدق هذا الرثاء لانـــه قيل بعد وفاته • وقد قيل لاحد الاعراب : لم تعدون الرثاء أصدق أشعاركم ؟ فقال : لاننا نقولها وقلوبنا تحترق •

وفعلا كانت ليلى تقول هذه الاشعار وقلبها يحترق ، ودمعها ينزف دمـــا •

وثالثها : لكثرة الصور الفنية التى وردت فى شعرها ، من حيث

ولكن لم يعرف بالغزل الا فى العصر الأموى ، كان يهوى ليلى الأخيليـــة ، وخطبها فرده أبوها وزوجها غيره ، فانطلق يقول الشـــعر مشـــببا بها ، واشتهر أمره وسار شعره وكثرت أخباره ، قتله بنو عوف بن عقيل سنة ٧٠هـ أو ٧١هـ • راجع : الاعلام مج ١ ص ٧٩ • والأمالى للقالى جـ ١ ص٩٠ والشعر والشعراء ص ١٦٩ ط عالم الكتب ، والأغانى للأصبهانى جـ ١٠ ص ٦٣ ط دار الكتب •

(١٠) قيل : ان ليلى الأخيلية ماتت سنة ١٠١هـ فى طريقها الى قتيبة ابن مسـلم الباهلى ، ودفنت بقوس ، وقيل بحلوان • راجـع : اتجاهات الشـعر فى العصر الأموى للدكتور/صـلاح الدين الهادى هامش ص ٤٤٩ الطبعة الأولى سنة ١٤٥٧هـ ـ مكتبة الخانجى بالقاهرة ـ ومصارع العشاق لأبى محمـد جعفر بن أحمد بن الحسـين السراج ص ١٨٨ مطبعة اجوائب سنة ١٢٧٧هـ •

تصـــوير مكارم حبيبها توبـــة ، ومن حيث تصـــوير شجاعته وكرمـــه للأضـــياف(١١) .

ومن رثاء ليلى فى توبة قولها(١٢) :

نظـــرت وركن من عمايـــة دوننا
وبطن الركايا أى نظرة ناظر(١٣)

فآنســـت خيـــلا بالرقى مغيرة
سوابقها مثل القطا المتواتر(١٤)

فـــلا يبعدنك الله يا توب انمـــا
لقاء المنايا دارعا مثل حاسر(١٥)

---

(١١) راجع : شاعرات العرب لعبد البديع صقر ص ٣٤٥ . منشورات المكتب الاسلامى بدمشق ، والرثاء فى الشعر العربى دكتور/محمود حسن أبو ناجى ص ٣٢٣ ــ ٣٢٤ . مكتبة دار التراث ــ المدينة المنورة .

(١٢) ينظر ص ٢٦٩ الحماسة للبحترى . دار الكتاب العربى بيروت . وشاعرات العرب ص ٣٥١ ، وتهذيب الكامل فى اللغة والأدب للسباعى بيومى ص ١٩٩ جـ ٢ الطبعة الأولى سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م مطبعة السعادة بمصـــر .

(١٣) عماية : جبل . والركايا : جمع ركية وهى البئر . وقد ورد فى تهذيب الكامل : بوانة بدل : عماية . وأركان جسمى بدل : وبطن الركايا . والبوانة ــ كثمامة ــ : هضبة وراء ينبع ، وماء لبنى عقيل .

(١٤) المتواتر : المتتابع ، أو على فترات . والرقى : علم . والقطا:طائر

(١٥) رجل وارع : عليه ورع . والحاسر : من لا مغفـر له ولا ورع ، أو لا جنة له وهذا البيت يروى :

فلا يبعدنك الله يا قوب مالـكا أخا الحـرب ان دارت عليه الدوائر

والبيت دخله الاقواء . راجع : تهذيب الكامل جـ ٢ ص ١٩٨ .

تبـــادره أســـيافهم فكأنمـــا
تصادرن عن حامى الحديدة باتر

من الهند واثبـــات فى كل قطعة
دم زل عن أثر من السيف ظاهر

أتته المنـــايا بين درع حصـــينة
وأسمر خطى وجرداء ضامر(١٦)

كأن فى الفتيـــان توبـــة لم ينخ
خلائص يفحصن الحصا بالكراكر(١٧)

تبدأ ليلى أبياتها بذكر بعض الاماكن والمواضع التى تردد فيهـــا توبة وطاف حولها يراجع فيها ذكرياته وآماله • وهى الاماكن نفسها التى كان فيها حتفه وهلاكه مثل : عماية ، الركايا ، بوانة ، الرقى وغيرها ممن كانت مشهدا لشجاعة توبة حبيبها مع أعدائه الذين فتكوا به •

وقد انتقت ليلى من الكلمات المحملة بشحنات وجدانية ، وذكريات مســـتكنة عن مواقف قديمـــة • تلك الكلمـــات التى أحاطت بتجربتهـــا ومشاعرها لها صـــلة قوية بنوعية العلاقة التى كانت تربطها بتـــوبة ، فتعدد لنا بعض فضائل ومكرمات حبيبها ، وكيف كان له شأن عظيم بين قبيلته • فهو حامى الديار ، قاهر الاعداء والخصـــوم • وبينما هى فى حسرتها ولوعتها على فراق حبيبها توبة يستقر فى وجدانها حقيقة الموت

---

(١٦) الخط : السيف • جرداء : ناقة •

(١٧) ورد فى تهيب الكامل : قلائص بدل : خلائص ، وهما بمعنى واحد والقلائص : جمع للقلوص من الابل الشابة القوية أو الباقية على السير • والكراكر : جمع كركرة ـ بكسر الكافين ـ : وهى زور البعير الذى اذا برك أصاب الأرض • وقيل الكراكر : كراديس الخيل •

والفناء من هذه الحياة،وأنه موت مهما اختلفت أسبابه ودواعيه،وتنوعت، وما دام الامر كذلك اذن لا فرق بين الموت حين يأتى على الانسان سواء كان مدافعا أو مهاجما ، فالمحصلة واحدة • وأخيرا تظهر ليلى ما فعلت السيوف بتوبة من قبل أعدائه حيث أرادوا الفتك به بالرغم من شجاعته وقـــوة بأســـه •

فالصـــورة الرثائية هنا صورة حزن وألم ، ومقارنة بين موت على الفراش ، وبين موت تحت ظل ضربات السيوف وسنابك الخيل ، وقد جـــاء القتل لتوبة بين السيوف والدروع ، وتذكر فضائله بين السيوف والدروع ، وفضائله الاخلاقية من كرم وحماسة وقوة بأس ورباطـــة جأش • هذا بالاضـــافة الى ما نلمحه من الابيات من حرارة العشـــاق والوفاء لهم وتخليد ذكراهم وعدم نسيانهم حتى بعد مماتهم •

وباختصار موفق للكلمات تتحدث ليلى عن توبة فتصـــفه بفضـــائل عربية أصيلة • انها تظهره فى رثائها له كيف كان سمحا شريفا ، فى بيته كريما ، وعونا لصحبه ورفقائه الذين يطلبون منه النصرة والعون فتقول :

فتى كان للمولى ســـناء ورفعـــة
وللطارق الساري قرى جد حاضر
فنعم الفتى ان كان توبة فاخـــرا
وبئس الفتى ان كان ليس بفاخر
فتى لا تخطـــاه الرفاق ولا يرى
لقدر عيـــال دون جـــار مجـــاور
ولا تأخـــذ الكوم الجلاد رماحها
لتوبة فى نحس الشقاء الصنابر(١٨)

---

(١٨) الكوم ــ بالضم ــ : القطعـــة من الابل ، والجـــلاد ــ ككتاب ــ : العزيزات اللبن ، أو ما لا لبن لها ولا نتاج • وصنابر الشتاء : شدة برده •

ثم توقفنا ليلى على مثالية العلاقة التى يجب أن تكون بين المحبين ، فرغم ما كان بينهما تذكر حياءه وحشمته فتقول :

فتى كان أحيا من فتاة حيية
وأشجع من ليث بخفان خادر
وكنت اذا مولاه خاف ظلامه
أتاك فلم ينقع سواك بناصر
فليس شهاب الحرب توبة بعدها
بغاز ولا غاد بركب مسافر

انه نعم الوفاء للحب ، انها لا تصف مغامراتها فى سبيل هذا الحب الذى ربط بين قلبيهما ، فأمرهما لا داعى لاخفائه فهو معلن لا تستتر فيه ، وانما تتعرض ليلى لاشد الصفات الخاصة المرتبطة بالوفاء والاخلاص ، والتى تتمثل فى شخصية توبة . ومن هذه الصفات الحياء ، وهذا يدلنا على أن الحب بين توبة وليلى كان طاهرا عذريا ، ثم تتحق به صفاتا أخرى ، فليس له نظير فى الشجاعة والبأس والقتال ، وهذا يدلنا أيضا على أن شجاعة الرجال وبطولاتهم لا تتنافى مع الحياء والوقار والتواضع ، وكأن ليلى أعادت أذهاننا الى ما يتصف به المسلمون الاوائل من الجمع بين الحياء والشجاعة فى مواطن النزال .

ثم تشير ليلى الى مظهر آخر من الوفاء للحبيب خاص بها ، وهو أن تظل أبد الدهر باكية حزينة عليه ، محافظة على وده وحبه ، وتقسم على ذلك قائلة :

فأقسمت أرثى بعد توبه هالكا
وأحفل من دارت عليه الدوائر(١٩)

---

(١٩) فى الشعر والشعراء ص١٠٣ : آليت أبكى بدل : فأقسمت أرثى ، وأن دارت بدل : من دارت .

لعمرك ما بالموت عار على الفتى
اذا لم تصبه فى الحياة المعاير

وما أحد حيا وان كان سالما
بأخلد ممن غيبته المقابر

وما كان مما يحدث الدهر جازعا
فلابد يوما أن يرى وهو صابرا

وليس لذى عيش عن الموت مقصر
وليس على الايام والدهر غابر(٢٠)

ثم تعزى ليلى نفسها وتتصبر على الحادث الاليم وهو قتل توبة ، وتقر بحقيقة واقعة حتما ، وكثيرا ما رددتها فى شعرها ، وهى أن كل شىء فى هذه الحياة لابد له من فناء فتقول :

ولا الحى مما يحدث الدهر معتب
ولا الميت ان لم يصبر الحى ناشر

وكل شباب أو جديد الى بلى
وكل امرىء يوما الى الله صائر

وكل قرينى ألفة لتفرق
شتاتا وان ضنا وطال التعاشر

فلا بيعدنك الله حيا وميتا
أخا الحرب وان دارت عليك الدوائر

---

(٢٠) على الدهر مذهب بدل : عن الموت مقصر . راجع المصدر السابق

فآليت لا أنفـك أبكيـك مادعـت
على فنن ورقـاء أو طـار طـائر
فتيـل بنى عـوف فيـا لهفتا له
ومـا كنت ايـاهم عليـه آحـاذر
ولكنمـا أخشـى عليـه قبيـلة
لهـا بدروب الـروم باد وحـاضر

فقد أضفت ليلى على حبيبها توبة معانى بالغة الرقة فى الخيـال والتصوير ، بالاضافة الى مشاعرها الانسانية الصادقة .

وهكذا يكـون رثاء العشاق بذكر محاسن وفضائل المرثى مصحوبا بالبكاء المـر الطويل والانين الموجع .

وفى موطن آخر من شعرها تقول ليلى راثية توبة(٢١) .

أعينـى ألا فابكـى على ابن حمـير
بدمـع كفيـض الجـدول المتفجـر
لتبـك عليـه من خفـاجه نسـوة
بمـاء شـئون العبـرة المتحـدر
سـمعن بهيجـا أزحفـت فذكرتـه
وقـد يبعث الاحزان طـول التـذكر
كـأن فتى الفتيـان توبـة لم ينخ
بنجـد ولـم يطـلع مـع المتغـور

---

(٢١) راجع تهذيب الكامل ج ٢ ص ٢٩٩ الطبعة الأولى سنة ١٣٤١هـ

ولم يـرد المـاء السـدام اذا بـدا
سنا الصبح فى أعقاب أخضر مدبر(٢٢)

ألا رب مكـروب أجبـت وخـائف
أجـرت ومعـروف لديـك ومنكـر

فيـا توب للمولى ويا تـوب للنـدى
ويا تـوب للمسـتنبح المتنـور(٢٣)

فهى تطلب من عينيها البكاء كأى بكاء ، انه بدمع متتابع غزير ، يفيض كفيضان الجدول الذى تفجرت مياهه وينابيعه ، ثم هى لا تطلب البكاء لنفسها فقط ، بل تطلب من نساء قبيلة توبة البكاء أيضا على هذا الرجل الذى ملأت شهرته الآفاق بفضائله وشمائله العربية الاصيلة .

وتخص ليلى توبة بمحامد وفضائل من كرم وشجاعة وعفـة وحق جوار ، ثم تنفى بأسلب أخاذ ما يتردد على ألسنة القوم فى شأن توبة ، وذلك من خلال حديث جرى بينها وبين معاوية بن أبى سفيان حين قال لها : ياليلى يزعم الناس أن توبة كان عاهرا خاربا فتقول(٢٤) :

معـاذ الهى قـد كان والله توبـة
جـوادا على العـلات جما نوافله

أغر خفاجيـا يرى البخـل سـبة
تخـالف كفـاه النـدى وأنامـله

---

(٢٢) المـاء السدام : المندفق .

(٢٣) المولى : لفظـة تطلق على الصـاحب والقريب والجـار والحليف والناصر والمنعم والمحب والمستنبح : صاحب جماعات كثيرة .

(٢٤) راجع : الرثاء فى الشعر العربى د/ محمود أبو ناجى ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، نقلا عن زهر الآداب للحصرى جـ ٢ ص ٩٣٢ .

عفيفـا بعيـد الهم صـلبا قناتـه
جميلا محيـاه قليـلا غوائله(٢٥)
وكان اذا ما الضـيف أرغى بعيره
نديـه أثـاره نيله وفواضله(٢٦)
وقـد علم الجوع الذى كان ساريا
على الضـيف والجيران انك قاتله
وانـك رحب البـاع تعرب بالذى
اذا ما لئيم القوم ضـاقت منازله
يبيت قرير العين من كـان جـاره
ويضـحى بخـير ضـيفه ومنازله

فيقول لها معاوية : ويحك يا ليلى لقد جزت بتوبة قدره .

ومن خـلال ما عرضـناه من رثاء ليلى لصـاحبها توبة يتبين أن رثاءها كان دليـلا على وفائها له رغم أنهـا تزوجت غيره ، فقـد ظلت محتفظة بعهده ميتا كما كانت تحبه حيا تسوده عاطفة الرثاء والطهـارة والوفاء والوداد .

وعروة بن حزام(٢٧) صاحب عفراء الذى قتله العشـق وقرحته

---

(٢٥) الغوائل : الدواهى .

(٢٦) رغا البعير رغاء : صوت فضج .

(٢٧) عروة بن حزام : من بنى ضبة العذريين ، وهو ابن مهاجر الضبى شاعر مخضرم عاش أيام عثمـان بن عفان ، وهو من متيمى العـرب ، وأول عاشق فى الاسلام ، كان يحب ابنة عمه عفراء . وهى بنت مهصر أخى حزام كلاهما ابنا مالك بطن من بنى عذرة ، نشأ معها فى بيت واحد ، لأن أباه

الآلام والانات يرثى نفسه وهو على فراش الموت ملتفتا الى أخواته قائلا(٢٨) :

من كان من أمهاتى باكيا أبدا
فاليوم انى أراك اليوم مقبوضا

من كان يلحو فانى غير سامعه
اذا علوت رقاب اليوم معروضا

وحين بلغ عفراء وفاة عروة قالت لزوجها : يا هناه قد كان من أمر هذا الرجل ما بلغك ووالله ما كان ذلك الا على الحسن الجميل ، وانه قد بلغنى أنه مات فى أرض غربة فان رأيت أن تأذن لى فأخرج فى نسوة من قومى فيندبنه ويبكين عليه ، فقال : اذا شئت ، فأذن لها فخرجت ترثيه وتقول :

ألا أيها الركب المحبون ويحكم
بحق نعيتم عروة بن حزام

فلا هنىء الفتيان بعدك غارة
ولا رجعوا من غيبة بسلام

خلفه صغيرا ، فكفله عمه ، ولما كبر خطبها عروة . فطلبت أمها مهرا لا قدرة له عليه ، فرحل الى عم له باليمن ، وعاد ، فاذا هى زوجت بابن عم لها من البلقاء بالشام ، فلحق بها فأكرمه زوجها فأقام أياما وودعها وانصرف فضنى حبا ، ولشدة معاناته فى العشق ضرب به المثل بين العرب والمولدين ومات عروة قبل بلوغ حيه ودفن فى وادى القرى (قرب المدينة) سنة ٣٠هـ وقيل سنة ٢٨هـ . راجع : الأعلام للزركلى مج ٤ ص ٢٢٦ ومصارع العشاق ص ٢٠٩ ــ ٢١١ ، والشعر والشعراء ص ١٤٥ ، ١٤٦ طبعة عالم الكتب

(٢٨) راجع مصارع العشاق ص ٢٠٩ .

فقـــل للحبالى لا يرجين غائبـــا
ولا فرحـــات بعـــده بســـــلام

ولم تزل تردد هذه الابيات وتبكى حتى ماتت ، فدفنت الى جانبه ، فبلغ الخبر معاوية فقال : لو علمت بهذين الشريفين لجمعت بينهما(٢٩) .

وكأن شدة الوجد ومرارة الحرمان وغلبة الهوى بعد فقد الحبيب قـــد أنسى عفراء تقاليد البادية الصـــارمة وتقاليد الزواج فى المجتمع المسلم ، حتى تطلب من زوجها أن يأذن لها بالخروج كى تندب حبيبهـــا الاول (عروة) .

ويذكر أحد الادباء نقلا عن صاحب شاعرات العرب أن عروة بينما هو على هاوية الموت يخاطب عفراء بقوله(٣٠) :

ألا مـــا للحبيبـــة لا تعـــــود
أبخـــل بالحبيبـــة أم صـــدود
مرضـــت فعـــادنى عواد قومى
فمـــالك لا ترى فيمن يعـــود
فلو كنت المـــريض ولا تكونى
لعـــدتكم وإن كثـــر الوعيـــد
ولا استبطأت غـــيرك فاعلميه
وحولى من ذوى رحمى عـــديد

قد أغمى عليه ، فمات ، فوقعت الصيحة ، فخرج من المـــاء جارية

---

(٢٩) المرجع السابق والصفحة .

(٣٠) الرثاء فى الشعر العربى د/ محمود أبو ناجى ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ وشاعرات العرب لعبد البديع صقر ص٤٩ منشورات المكتب الاسلامى بدمشق

كأنها فلقة قمر ، فتخطت رقاب الناس ، حتى وقفت عليه فقبلته وأنشأت تقـــول :

عدانى أن أعودك يـــا حبيبى
معـــاشر فيهم الواشى الحسود

أذاعـــوا ما علمت من الدواهى
وعـــابونا وما منهـــم رشـــيد

فلا بقيت لى الدنيـــا فـــواقا
ولا لهم ولا أثرى عديد(٣١)

ثم شهقت شهقة خرت ميتة منها ، فخرج من بعض الاخبية شيخ فوقف عليهما وترحم وقال : لئن كنت لم أجمع بينكما حيين لأجمعن بينكما ميتين فدفنهما فى قبر واحـــد احتفره لهما ، يقـــول الراوية : فسألته فقال : هذه ابنتى وهذا ابن أخى •

فعفراء حرية بهذا الحب الذى يكنه لها عروة ، ومن خلال الهيام الروحى يجرى العتاب الودى الذى يحمل كل معانى الايثار والتضحية فى سبيل كل منهما الآخر ، مراعاة لحسن العرض وعفة العشق • فعتاب عروة لعفراء كان لعدم زيارتها له وهو يفارق الحياة الى الابد ، بيـــد أن عفراء ترد على ذلك بأنها تخشى الوشـــاة والرقباء واوم اللائمين وأمثالهم ممن وظفوا أنفســـهم للحديث عن هذا الحب ، حتى يتحقق مبتغاهم من فراق وهجر بين المحبين ، ولا شك أن عروة كان صـــادقا

---

(٣١) فاق أصحابه فوقا وفواقا ـ بفتح الفاء ـ : علاهم بالشرف ، وبضمها : الفاقه والفقر والحاجة • والعديد ـ بالفتح ـ : النفر والقرن والعديد أيضا كالعداد : العطاء •

فى مشـــاعره ، فقد أجاد الرثاء لنفسه ، فهو نابع من قلب معذب لاقى الكثير من تباريح الهوى والحب • وعفراء أيضا صـــادقة فى رثائها له يكتنفه عفة متناهية وطهارة شريفة بعيدة عن الســـوء والفحش ، وكان عروة يبادلها هذه المثل والاخلاق حتى قال أمير المؤمنين معاوية ابن أبى سفيان : « لو أدركت هذين الشريفين لجمعت بينهما » •

ومن الشعراء الذين رثوا محبوباتهم وهاموا بهن « كثير عزة »

---

(٣٢) كثير عزة : هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخذاعى، أبو صخر ، شاعر مقيم مشهور ، من أهل المدينة ، أكثر اقامته بمصر ، وفد على عبد الملك بن مروان فازدرى منظره ، ولما عرف أدبه رفع مجلسه فاختص به وببنى مروان ، يعظمونه ويكرمونه • وكان مفرط القصر دميما ، فى نفسه شمم وترفع يقال له : (ابن أبى جمعة) ، و (كثير عزة) و (الملحى) نسبة الى بنى مليح وهم قبيلتـــه وكان عفيفا فى حبـــه قيل له : هل نلت من عزة شيئا طول مدتك ؟ فقال : لا والله انى كنت اذا اشتد بى الأمر أخذت يدها، فاذا وضعتها على جبينى وجدت لذلك راحة • توفى بالمدينة سنة ١٠٥هـ ٧٢٣م • راجع : الأعلام للزركلى مج ٥ ص ٢١٢ •

أما عزة : فهى ابنة أبى بصرة الغفارى حميد بن وقاص المحدث ، من بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناف • يقال كانت حلوة حميراء ، ونطيفة بأرعة الحديث • دخلت على عبد الملك بن مروان فقال لها : أنت عزة كثير ؟ فقالت: أنا عزة بنت حميد • (وفى الأمالى : أنا أم بكر الضمرية) قال عبد الملك : فما الذى أعجب كثير منك ــ وكانت اذ ذاك حسنة ــ ؟ قالت يا أمير المؤمنين: فوالله لقد كنت فى عهده أحسن من النار فى الليلة القرة ، وكانت بالمدينة ثم نزلت مصر فقصدها كثير ، فوافاها توفيت والناس منصرفون عن جنازتها راجع : الأمالى للقالى جـ ٢ ص ١٠٩ ، والأغانى للأصفهانى جـ ٨ ص ٢٦ • وعيون الأخبار لابن قتيبة جـ ١ ص ١٤٧ ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٥م ومعاهد التنصيص لعبدالرحيم العباسى جـ١ ص١٨٣ طبعةالبهية سنة١٣١٦هـ

بالرغم من كونه دميما بالغ القصر ، وعزة كانت حلوة بارعة الحديث ، هامت به وهام بها • وقد لاقى « كثير » من الحرمان ما لاقى ، حتى أنه رضى من عزة بأدنى درجات الوصل • فمرور عزة عليه من بعيد دون محادثة أو لقاء ، أو حتى دون اشارة كان يسره ، فالذى يرضيها ويسعدها من هذا الوصل يسعده ويرضيه يقول كثير(٣٣) :

يقر بعينى ما يقر بعينها
وأحسن شىء ما به العين قرت

كأنى أنادى صخرة حين أعرضت
من الصم لو تمشى بها العصم زلت(٣٤)

صفوح فما تلقاك الا بخيلة
فمن مل منها ذلك الوصل ملت(٣٥)

وكثير لم يدرك عزة حين وفاتها فى مصر كما أشرنا من قبل • ويذكر بعض الادباء(٣٦) : أن كثير عزة بينما هو بالكوفة أرسل اليه عبد الملك بن مروان أن أركب البر واعجل ، فانى مزوجك عزة فأتاه الكتاب وهو مضنى من الشوق اليها ، فرحل فأقبل نحوها ، فلما كان

---

(٣٣) راجع الأبيات فى ديوان كثير عزة جمع د/ احسان عباس ص ٩٥ طبعة دار الثقافة بيروت سنة ١٩٧١ • والأمالى جـ ٢ ص ١٠٩ •

(٣٤) الصم : جمع صماء وهى الصخرة العظيمة • والعصم : حصن باليمن لبنى زبيد ، وجبل لهذيل •

(٣٥) الصفوح : المعرضة الهاجرة • وسمى هذا النوع من الوصل وصلا ، لأنها لا تجود بغيره •

(٣٦) راجع : مصارع العشاق ص ٨٠ للسراج ، وزهر الآداب للحصرى على هامش العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ص ٧٩ ، ٨٠ المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٤هـ •

هى بعض الطريق إذا هو بغراب على شجرة بانة ، وإذا هو ينتف ريشه ويطايره . وكان شديد الطير ، فلما رآه يطير وهم بالانصراف ، ثم غلبه شوقه فمضى وهو مكروب لما رأى ، حتى أتى ماء لبنى نهد ، واذا هو برجل يسقى ابله ، فنزل عن راحلته واستظل بشجرة هناك ، فأبصره النهدى فأتاه وسأله عن اسمه ونسبه فانتسب له فرحب به فأخبره عما رأى فى طريقه فقال : أما الغراب فغربة ، وأما البانة فبين ، وأما نتف ريشه ففرقه(٣٧) وحين وصل مصر وجد الناس منصرفين من جنازة عزة فقال :

رأيت غرابا ساقطا فوق بانة
ينتف أعلى ريشه ويطايره(٣٨)
فقلت ولو أنى أشاء زجرته
بنفسى للنهدى هل أنت زاجره(٣٩)
فقال غراب لاغتراب من النوى
وفى البان بين من حبيب تجاوره
فما أعيف النهدى لادر دره
وأزجر للطير لاعز ناصره(٤٠)

ثم أتى قبر عزة فناخ به ساعة ثم رحل وهو يقول هذه الابيات :

---

(٣٧) فى زهر الآداب للحصرى قال له : أما أنك تطلب حاجة لو تدركها

(٣٨) البانة : نوع من الشجر يطايره : يفرقه .

(٣٩) الزجر للطير وغيره : التيمن بسنوحها والتشاؤم ببروحها .

(٤٠) ما أعيفه : ما أمهره فى العيافة وهى الزجر . لا در دره : دعاء عليه بألا يكثر خيره ولا يغزر .

سراج الدجى صفر الحشا منتهى المنى
كشمس الضحى نوامة حين تصبح(٤١)

اذا ما مشيت بين البيوت تخزلت
ومالت كما مال النزيف المرنح(٤٢)

تعلقت عزا وهى رؤد شبابها
علامة حب كاد بالقلب يرجع(٤٣)

أقول ونضوى واقف عند رمسها
عليك سلام الله والعين تسفح(٤٤)

فهذا فراق الحق لا أن تزيدنى
بلادك فتلاء الذراعين صيدح(٤٥)

وقد كنت أبكى من فراقك حيه
وأنت لعمرى اليوم أنأى وأنزح

فيا عز أنت قد مال دونه
رجيع تراب والصفيح المضرح(٤٦)

فهلا فداك الموت من أنت زينه
ومن هو أسوأ منك دلا وأقبح

---

(٤١) صفر الحشا : ضامرة البطن ، ونوامة : مترفة .
(٤٢) تخزلت : تثاقلت فى مشيها ، والنزيف : السكران .
(٤٣) الرؤد : الشابة الحسنة .
(٤٤) النضو : المهزول من الابل .
(٤٥) الصيدح : الصياح .
(٤٦) رجيع التراب : أخرج من الحفرة ثم رد اليها . والصفيح : الحجر العريض ، والمضرح : المشقوق المعد للضريح .

على أم بكـر رحمـة وتحيـة
لهـا منـك والنـأى يـود وينصـح

وما نظـرت عينى الى ذى بشـاشـة
من النـاس الا أنت فى العيـن أملح

ألا لا أرى بعـد ابنـة النضر لـذة
لشـىء ولا ملحـا لم يتمـلح(٤٧)

فـلا زال رمس ضـم عزة سـائلا
بـه نعمـة من رحمـة الله تسـفح

فان التى قـد أحببت قـد حال دونها
طـوال الليـالى والضريح المصـفح

أرب بعينـى البكـا كـل ليـلة
فقـد كاد مجرى دمع عينى يقرح(٤٨)

اذا لم يكن ما تسـفح العين لى دما
وشـر البكـا المسـتعار الممنح(٤٩)

فكثير فى هذه الابيات يندب حظه العاثر ، وذلك بعد قصة غرامية عفيفة طويلة مع صاحبته « عزة » فيصـور لنا حجم الكارثة وهى فقدان حبيبته التى أحبها فى حياته ويسبح فى عالم ذكراه مع عزة أيام الوصل

---

(٤٧) الملح : الملاحة .

(٤٨) أرب : لزم وأقام .

(٤٩) الممنح : الدم المتواصل . راجع الأبيات فى : مصارع العشاق ص ٨٠ ، ديوان كثير عزة ص ٤٦١ ، وزهر الآداب للحصرى ص ٧٩ ، ١٨٠ الطبعة الأميرية سنة ١٣٢٤هـ . والقصيدة الأموية د/ عبد الله التطاوى ص ٥١٤ ، ٥١٥ ط مكتبة غريب .

والهناء ، فيصورها كما ألحت عليه ذاكرته راسما لها صورة غزلية رقيقة في بدء أبياته ؛ فهي سراج الدجى ، وصفر الحشا ، وهي كشمس الضحى ، رؤد شبابها تتمايل وتتبختر في مشيتها من رشاقتها ، وهي « البدر » وهي « ابنة النضر » • وقد أبدع كثير في صياغة هذه الصور ابداعا يتناسب مع حالته النفسية ، وحينما يتعرض لامر الموت يرسم مشهدا قاتما كئيبا للقبر وللموت معا ، يسكب الكثير من آلامه وأوجاعه ، فتنهمر دموعه ، وهي ليست كدموع الفراق والهجر أيام أن كانا معا ، وانما دموع الحب والاخلاص في حياتها ومماتها ، وهذا مما نلحظه من خلال ما ساقه من أساليب دعائية تدل على ذلك ، والتي يجأر بها على قبرها : « عليك سلام الله » « فهلا فداك الموت » ويرسم صورا لذكرياته معها وعلاقته أيام أن كانا حبيبين مؤتلفين ، فهي علاقه حب كاد بالقلب يرجع ، وكيف بكى من فراقها حيه ، وما نظرت عينه الى ذى بشاشة أملح منها ، فهي التي أحبها • ثم يأتي الى واقع ذكرياته معها من خلال البعد الهائل الذى لا رجعة فيه ، « أنت اليوم أنأى وأنزح » و « قد حال دونها طول الليالى » ، وهو لا يرى شيئا محسوسا الا رجيع تراب و « صفيح مضرح » و « الضريح المصفح » ، ولذا لو لم يحدث هذا الواقع الاليم ، وأن الموت فداها لحسنها على كل الناس لما وجد الا دموعه التي لا تكف عن سكبها ، فالعين تسفح وقد : « أرب بعينيه البكاء كل ليلة » ، فكاد مجرى الدمع يقرح عينه ، فهو يبكيها شر البكاء بكثرة دموعه التي يتمنى أن كانت دما • ويبدو أن الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر والتي جعلته يعيش ممزقا بين ماضيه وواقعه قد جعلته يمزج بين موقفين متناقضين ، موقف غزلي ، وآخر رثائي • غير أننا نقول : ان القصيدة بدت وكأنها وقفة شعورية واحدة ، فالتمزق والضياع أمام رهبة الموقف وجلاله مع الحزن الذى يكشفه الواقع والذكريات معا جعلت الشاعر يدور حول خط نفسي واحد •

فحين يتناسى حاضره يلجأ الى الغزل ، واذا ما وجد نفسه يعايش الحاضر انقلب راثيا ٠

ومجنون بنى عامر(٥٠) عشق ليلى وهو صبى حينما كانا يرعيان البهم ، ودوام الحال من المحال فقد كبرت ليلى فحجبها أبوها من الخروج ، ومجالسة الاتراب خارج الديار ، فيتزايل كيان المجنون ، ويتبرح عشقا وهياما فى ليلى حتى أصبح شبحا لا يرى ، وزجاجه

---

(٥٠) يقول الزركلى عنه : انه قيس بن الملوح بن مزاحم العامرى ، شاعر غزل من المتيمين من أهل نجد لم يكن مجنونا ، وانما لقب بذلك ، لهيامه فى حب ليلى بنت سعد ٠ نشأ معها الى أن كبرت ، وحجبها أبوها ، فهام على وجهه ينشد الأشعار ويأنس بالوحوش ، فيرى حينا فى الشام وحينا فى نجد وحينا فى الحجاز ، الى أن وجد ملقى بين أحجار وهو ميت ٠ فحمل الى أهله توفى سنة ٦٨هـ ــ ٦٨٨م راجع : الأعلام للزركلى مج ٥ ص ٢٠٨ ٠ ويذكر بعض الأدباء : أن اسمه : عامر بن الملوح (معاذ) بن مزاحم ، من كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، فهو عامرى النسب ، ولذا عرف بمجنون بنى عامر سقط شهيد العشق بعد أن أصيب بالهزال وتغير اللون ٠ وتزايد الأمر به حتى فقد عقله ، وكان لا يقر فى موضع ولا يأنس برجل ولا يعنوه ثوب الا مزقه ، وصار لا يفهم شيئا مما تكلم به الا أن تذكر له ليلى ، فاذا ذكرت أتى بالبداهة ورجع عقله ٠ وصاحبته ليلى بنت مهدى بن سعد يتصل نسبهما فى كعب بن ربيعة ، فهى عامرية أيضا ، وكنيتها أم مالك ٠ قيل توفيت قبله ، وفى وفاته قيل توفى سنة ٧٠هـ ٠

راجع : اتجاهات الشعر الأموى للدكتور صلاح الدين الهادى هامش ص ٤٥٧ ٠ ومصارع العشاق ص ٢٣٦ ، ٢٥٩ وسمط اللالىء لأبى عبيدة البكرى ص ٣٥٠ جـ ١ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦م٠

تتكشف عما بداخلها ، انها ليلاه ، هى التى فعلت به ذلك • وسيبقى جلدا على عظم ان استمر به الحال هكذا • يقول المجنون :(٥١)

وأنت التى صيرت جسمى زجاجة تنم على ما تحتويه الاضالع

ويقول :(٥٢)

ولم يبق الا الجلد والعظم عاريا ولا عظم لى ان دام ما بى ولا جلد

قال قيس فى ليلى شعرا كثيرا يتغنى به كل زمان ومكان ، تردد على ديارها ، وشهر بحبها ، فخاف الاهل على ليلى واجتمعوا اليه ليمنعوه من محادثتها وزيارتها ، وتهددوه بالقتل ، غير أن مسعاهم لم يؤت ثماره ، فخرج أبو ليلى ومعه نفر من قومه الى مروان بن الحكم ، فشكوا اليه ما نالهم من قيس ، وما قد شهرهم به ، فكتب مروان الى عامله يأمره أن يحضر قيسا ، ويتقدم اليه فى ترك زيارة ليلى والا أهدر دمه ، ولما ورد الكتاب على عامله بعث الى قيس وأبيه وأهل بيته فجمعهم وقرأ عليهم كتاب مروان وقال لقيس : اتق الله فى نفسك لا يذهب دمك هدرا فانصرف قيس وهو يقول :

ألا حجبت ليلى وآلى أميرها
على يمينا جاهدا ألا أزورها
وأوعدنى فيهم رجال أبوهم
أبى وأبوها خشنت لى صدورها
على غير شىء غير أنى أحبها
وان فؤادى عند ليلى أسيرها

---

(٥١) ديوان مجنون بنى عامر ص ١٨٥ بعناية عبد الستار فراج طبعة مكتبة مصر بالقاهرة .

(٥٢) تزيين الأسواق لداود الأنطاكى ص ٦٠ دار الطباعة سنة ١٢٩١هـ

فلما أيس منها ، وعلم ألا سبيل اليها ، صار شبيها بالتائه العقل ، وبلغ ليلى ما صار اليه قيس فجزعت أيضا لفراقه ، وضنيت ضنا شديدا ، ثم تزوجت رجلا غنيا أعجب بها بينما كانت بالطواف مع أهلها وبلغ الخبر قيسا فأنشأ يقول :

ألا تلك نيلى العامرية أصبحت
تقطع الا من ثقيف وصالها
هم حبسوها محبس البدن وابتغى
بها المال أقوام تساحف مالها(٥٢)

وحينما لاح نذير الموت بعد سقم مبرح لجسم قيس ينعى نفسه فيقول :(٥٤)

وانى لاستغشى وما بى نعسة
لعل خيالا منك يلقى خيالنا
وأخرج من بين البيوت لعلنى
أحدث عنك النفس فى السر خاليا
أصبر ولما تمض لى غير ليلة
رويدا الهوى حتى يغب لياليا
أرى الدهر والايام تفنى وتنقضى
وحبك ما يزداد الا تماديا

ويرثى قيس ليلى بأرق الالفاظ وأجمل العبارات مناجيا قبرها بعد

---

(٥٣) راجع القصة بالتفصيل فى مصارع العشاق ص ٤٢٠ ـ ٤٢٢ .

(٥٤) الأمالى جـ ١ ص ٢١٩ المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٤هـ .

إن أصبحت وحيدة لا أنيس لها ولا جليس • نعم انه الفراق الابدى •
يقـــول :(٥٥)

أيا قبر ليـــلى لو شهدناك أعطلت
عليك نساء من فصيح ومن عجم

ويا قبـــر ليـــلى أكر من محلهـــا
يكن لك ماعشـــنا علينا بهـــا نعم

ويا قبر ليـــلى ان ليلى غريبـــة
شبيها لليلى ذا عفـــاف وذا كرم

ويا قبر ليـــلى غابت اليوم أمها
وخالتهـــا والحافظون لهـــا الذمم

فالابيـــات توقفنا على أن قلب هـــذا الواله المتيم كان معلقا فى صاحبة هذا القبر ، فهى كانت كل هنائته وسعادته ، بدليل أنـــه يطلب من القبر الذى ضمها الرأفة واللين بصاحبته ويكون هذا جميلا وتفضلا للقبر على قيس ، فيظل حافظا له صنيعه بالرغم من أن القبر لم يضم بين شقيه مثيلا لها جمالا وعفة وكرما •

ومن الذين أضناهم العشق ، وقرح أفئدتهم الهوى « جميل بن معمر »(٥٦) الذى قال الشعر كثيرا فى صاحبته « بثينة » حيث تعلق

---

(٥٥) ديوان مجنون ليلى بنى عامر ص ١٩٨ •

(٥٦) جميل بن معمر بن عبد الله العذرى ، صاحبته بثينة ، وهما من عذرة ، ويكنى أبا عمرو • وهو أحد العشاق العرب المشـــهورين ، وكانت بثينة تكنى أم عبد الملك ، وعشق جميل بثينة وهو غلام صغير • فلما كبر خطبها فرد عنها ، فقال فيها الشعر ، وكان يأتيهـــا وتأتيـــه ، ومنزلهما

بها منذ الصغر والنشأة • فحبها عالق بقلبه ، متقد فى مشاعره • وقد لاقى فى حبه لبثينة معاناة وعذابا فيقول :(٥٧)

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل
الى اليـــوم ينمى حبهـــا ويزيد
وأفنيت عمرى بانتظارى وعدها
وأبليت فيهـــا الدهر وهو جـــديد
لكـــل حـــديث بينهن بشـــاشـــة
وكـــل قتيـــل عنـــدهن شـــهيد
وقد تلتقى الاشتات بعـــد تفرق
وقد تدرك الحاجات وهى بعيـــد

وينعى جميل نفسه قبل موته ، ولم ينس بثينة فى آخر لحظات عمره وذلك من خلال دعوته لرجل عرض عليه أن يعطيه كل ما آخلفـــه على أن يفعل شيئا عهد به جميل للرجل • قال جميل : اذا أنا مت فخذ

= « وادى القرى » من أعمال المدنية ثم رحل هو وقومه الى أطراف الشام • وقصد جميل مصر وافدا على عبد العزيز بن مروان ، فأكرمه عبد العزيز • وأمر له بمنزل وأقام قليلا ومات فيه سنة ٨٢هـ قبل بثينة • راجع : الأعلام للزركلى مج ١ ص ١٣٨ • والشعر والشعراء ص ١٠٠ طبعة عالم الكتب ، والأدب العربى فى مصر د/ عبد الرازق ابراهيم حميدة ص ١٤٥ الطبعة الثانية سنة ١٣٧٧هـ • واتجاهات الشعر فى العصر الأموى هامش ص ٤٢٨ نقلاً عن داود الأنطاكى فى تزيين الأسواق ص ٣٢ دار الطباعة سنة ١٢٩١هـ •

(٥٧) الشعر والشعراء ص ٢٠١ •

حلتى هذه التى فى عيبتى(٥٨) واعز لها جانبا ، ثم كل شىء سواها لها ، وارحل الى رهط بنى الاحدب من عذرة وهم رهط بثينة . فاذا صرت اليهم فارتحل ناقتى هذه واركبها ثم البس حلتى هذه واشققها ، ثم اعل على شرف(٥٩) وصح بهذه الابيات :

صدع النعى وما كنى بجميل
وثوى بمصر شعراء غير قفول(٦٠)

ولقد أجر الذيل فى وادى القرى
نشوان بين مزارع ونخيل(٦١)

قومى بثينة فاندبى بعويل
وابكى خليلك دون كل خليل

يقول الرجل : فلما قضى ، وواريته ، أتيت رهط بثينة ففعلت ما أمرنى به جميل فما استتمت الابيات حتى برزت الى امرأة يتبعها نسوة ، قد فرعتهن طولا ، وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز فى وجنة(٦٢) ، وهى تتعثر فى مرطها(٦٣) ، حتى أتتنى فقالت : يا هذا والله لئن كان صادقا نقد قتلتنى ، ولئن كان كاذبا فقد فضحتنى قلت : والله ما أنا الا صادق ، وأخرجت حلته ، فلما رأتها صاحت بأعلى

---

(٥٨) العيبة : زبيل من أدم ، وما يجعل فيه الثياب .

(٥٩) الشرف : المكان العالى .

(٦٠) ثوى : أطال الاقامة ، أو نزل بالمكان . وقفل قفولا : رجع فهو قافل .

(٦١) الذيل : آخر كل شىء ، وما جر من الازار والثوب . وتشير الابيات ال رحلة جميل الى مصر ، والى مثواه الأخير بها ، وحسرة على موطنه فى الحجاز . ولم ينس بثينة فى آخر أشعاره .

(٦٢) الوجنة : ما ارتفع من الخدين .

(٦٣) المرط : كساء من صوف أو خز وجمعه : مروط .

صوتها وصكت وجهها ، واجتمع نســـاء الحى يبكين معها ويندبنه حتى صعقت ، فمكثت مغشيا عليها ثم قامت وهى تقول :

وان ســـلوى عن جميل لســـاعة
من الدهر ما حانت ولا حان حينها
ســـواء علينا يا جميـــل بن معمر
اذا مت بأساء الحياة ولينها(٦٤)

فقد أبدت بثينة مشـــاعر صادقة لجميل تحمل معنى الوفاء فى الحياة وبعدها .

وبعد فقد عرضنا أشعارا لرثاء العشاق كلها عبرت عن تجربـــة صادقة اكتوى بنارها شعراء وشواعر العصر الاموى ، حتى أن معظم هؤلاء قد قضـــوا نحبهم اثر التعب والشـــقاء الذى وجدوه من الحب الحار العنيف الذى أودى بحياتهم . فان كل شاعر أو شاعرة عبر فى صور موحية عن تجربة شـــعورية داخلية بأرق الالفاظ وأبدع المعانى وأجمل الاساليب وأحلى الصور وأوجع الرثاء . فلا نجد صور الرثاء الصادقة فى عصر كما نجدها فى عصر بنى أمية ، وخاصة ما نجده فى شـــعر الاباحيين وزعيمهم عمر بن أبى ربيعة وحب العذريين والذين يمثلهم جميـــل بثينـــة وكثير عزة ، ومجنون ليـــلى ، وعروة بن حزام والذين ابتلوا بحب عذرى عفيف شريف ومن الشواعر : ليلى الاخيلية صاحبة توبة بن الحمير ، وعفراء صاحبة عروة بن حزام .

دكتور / حمدى محمد محمود برعى
مدرس الادب والنقد بكلية الدراسات
الاسلامية والعربية للبنين بدمياط [جامعة الازهر]

---

(٦٤) راجع : الشعر والشعراء ص ١٠١ ، والأدب العربى فى مصر د/ عبد الرازق حميدة ص ١٤٥ .